الفكر السياسي عند ابن الأزرق (ت 896هـ / 1491م)

يُعدّ أبو عبد الله محمد بن علي الأصبحي الغرناطي، المعروف بـ **ابن الأزرق**، قاضي غرناطة ووزيرها وسفيرها في أيامها الأخيرة، أحد أواخر أعمدة الفكر السياسي والعمراني في الأندلس. يُعتبر كتابه الشهير *"بدائع السلك في طبائع الملك"* حلقة وصل تاريخية وفكرية جوهرية؛ إذ قام بتأصيل ونشر النظريات الخلدونية وتكييفها مع الشريعة والتطبيق السياسي الميداني.

أولاً: الجمع بين الشريعة وعلم الاجتماع السياسي (السنن الاجتماعية)

امتاز منهج ابن الأزرق بالدمج بين التنظير الشرعي للسياسة والتحليل العمراني الخلدوني:

- **السياسة الشرعية والسياسة العقلية:** قسم السياسة إلى شرعية (تراعي مصالح الدنيا والآخرة) وعقلية (تراعي المصالح الدنيوية). وأكد أن الملك الطبيعي يستوجب الانضباط بالشرع والعقل لضمان استقرار الدولة.
- **الاجتماع البشري وضرورة السلطان:** وافق ابن خلدون في أن الاجتماع الإنساني ضروري، وأن هذا الاجتماع يحتاج إلى "وازع" أو سلطان يمنع التظالم بين البشر ويحفظ نظام المجتمع.
- **تكييف النظرية الخلدونية:** لم يكن مجرد ناقل لابن خلدون، بل قام بتهذيب آرائه وبوبها وأضاف إليها أبعاداً فقهية وتطبيقية تعكس خبرته كقاضٍ ووزير.

ثانياً: أركان الملك وقواعد مبناه (الضرورة والكمال)

حدد ابن الأزرق بنيان السلطة والسياسة من خلال أركان متكاملة تنقسم إلى مقومات ضرورية وأخرى كمالية:

- **الركن الأول - السلطان (الرأس):** اشترط فيه الكفاءة، العدل، العلم، وحسن التدبير، محذراً من الاستبداد أو الانفراد بالرأي دون مشورة.
- **الركن الثاني - الرعية (القاعدة):** اعتبر الرعية أساس الملك، وأكد أن صلاح السلطان يكون برعايتهم وحفظ أموالهم وأرواحهم وعدم إرهاقهم بالجبايات الشديدة.
- **الركن الثالث - المادة والمال:** رأى أن المال هو شريان الدولة، وأن انتظام الجباية بالعدل هو السياج الحقيقي لاستمرار السلطة وتجهيز الجيوش.

ثالثاً: العوارض والعوائد المترتبة على الملك (أطوار الدولة)

حلل ابن الأزرق مسار نشوء الدول وسقوطها اعتماداً على مفاهيم العصبية والترف:

- **دور العصبية والتضامن:** اعتبر العصبية والتكافل الاجتماعي المحرك الأساسي لبناء الملك، ورأى أن ضعف التضامن يؤدي إلى تفكك السلطة.
- **خطر الترف والانغماس في الملاذ:** حذّر من أن الانغماس في الترف يفسد أخلاق الحكام والجيش، ويؤدي إلى الانحطاط المالي والسياسي ومن ثَم السقوط.
- **التشخيص المبكر لسقوط الأندلس:** عكست تحليلاته العوارض التي شهدتها مملكة غرناطة في أيامها الأخيرة من انقسام داخلي واعتماد على القوى الخارجية.

رابعاً: وظائف الدولة وأخلاقيات تدبير الرياسة

قدم ابن الأزرق دليلاً عملياً لإدارة أجهزة الدولة ومؤسساتها:

- **إدارة البطانة والوزارة:** حذّر السلطان من البطانة الفاسدة، وشدد على اختار الوزراء والكتّاب بناءً على الأمانة والكفاءة وليس القرابة أو المحاباة.
- **الدبلوماسية والسفارة:** أفرد فصولاً خاصة بآداب الرسائل والسفراء، واعتبر السفارة أدوات حاسمة لتجنب الحروب وبناء التحالفات.
- **إقامة العدل والمؤسسات القضائية:** انطلق من خلفيته كقاضٍ ليؤكد أن استقلال القضاء وإقامة العدل هما الضمانة الكبرى لبقاء الحكم.

هيكلية الفكر السياسي في كتاب "بدائع السلك في طبائع الملك"

الكتاب / الباب	المحور الرئيسي	الأهمية السياسية والعملية
الكتاب الأول	حقيقة الملك والخلافة وأنواع الرياسة	التمييز بين الملك الطبيعي والسياسي والشرعي وتحديد مشروعية السلطة.
الكتاب الثاني	أركان الملك وقواعد مبناه	تحديد العلاقة بين الحاكم، الرعية، والمال، وشروط الاستقرار.
الكتاب الثالث	وظائف السلطان وتشييد أركان الدولة	التنظيم الإداري، اختيار البطانة الصالحة، وتنظيم الدبلوماسية والقضاء.
الكتاب الرابع	عوائد الملك وعوارضه (أسباب السقوط)	تحليل أسباب تحلل الدول بفعل الترف والظلم وتفكك العصبية.

خلاصة وإرث فكري: *يُمثل ابن الأزرق القمة الأخيرة للفكر السياسي الأندلسي، حيث استطاع أن يمزج النظرية الاجتماعية عند ابن خلدون بالواقع السياسي المعاش وأحكام الفقه الإسلامي، ليقدم صياغة متكاملة لـ "فن الحكم وتدبير الدولة".*